الفصل الثامن

الحياة : التجربة والعلم[1]

او الابستمولوجية وتاريخ العلوم

مقدمة تاريخية :

يعلم الجميع ان في فرنسا هنالك قلة من المناطقة ولكن هنالك عدد لا يستهان به من مؤرخي العلوم ، ونعلم أيضا انهم يحتلون داخل المؤسسة الفلسفية ـ تعليما وبحثا ـ مكانة معتبرة ولكن يمكن أننا نعلم اقل انه خلال العشرينيات والثلاثينيات الأخيرة ، وعلى حدود المؤسسة الفلسفية ، هنالك عمل يماثل أو يشبه عمل " جورج كونغليم Georges Canguilhem " .[2]

هنالك من دون شك مجالات مشهورة جدا مثل: التحليل النفسي ، الماركسية ، الالسنية ، الاتنولوجية ، ولكن لايجب ان ننسى هذه الحادثة النابعة ـ وكما نرغب ـ من سوسيولوجيا اوساط المثقفين الفرنسيين ، ومن سير مؤسساتنا الجامعية او نظام قيمنا الثقافي : ففي كل الاحاديث السياسية والعلمية للستينيات الفرنسية ، كان دور الفلسفة ـ ولا اقصد فقط الذين تكونوا في الجامعات وفي الدوائر الفلسفية ـ مهمّا وربما مهمّا اكثر في نظر البعض ، الا انه وبطريقة مباشرة او غير مباشرة فان كل اولئك الفلاسفة او معظمهم كان لهم علاقة بتدريس وتعليم وكتب جورج كونغليم .

وهنا تكمن المفارقة ، هذا الرجل صاحب الاعمال الصارمة والمحدودة اراديا والمكرسة بعناية فائقة لمجال خاص في تاريخ العلوم والذي لايشكل مجالا واسع الانتشار على كل حال ، والذي نجده حاضرا بطريقة ما في حوارات يتحفظ هو ذاته على الظهور ، ولكن ان نزعت او رفعت او ازحت كونغليم فانك لاتفهم اشياء كثيرة في تلك السلسة من الحوارات التي جرت بين الماركسيين الفرنسيين ، ولن تتعرف

---

[1]- << La vie : L'expérience et La science >> ,*Revus de métaphysique et de morale* ,90 année ,n°1 :*Caguilhem*, janvier-mars1985,pp.3-14.

ملاحظة : كان ميشيل فوكو يرغب في كتابة نص حديد لمجلة *Revus de métaphysique et de morale* التي خصت كونغليم بعدد خاص. الا ان تدهور حالته الصحية لم تسمح له الا بتعديل المقدمة التي كان قد كتبها لكتاب استاذه : السوي والمرضي *Normal et athologique* بمناسبة صدور ترجمته الامريكية .لقد سلم مشال فوكو هذا النص في اواخر افريل من سنة 1984 وبذلك يكون آخر نص يوافق على طباعته . ترجمة الزواوي بغورة

[2] - جورج كونغليم (Georges Canguilhem) 1995-19

بالتدقيق ايضا عما هو خاص عند السوسيولوجيين مثل "بورديو Bourdieu " و "كاستال Castel" و"بسرون Passron" حيث اثره القوي في الحقل الاجتماعي او السسيولوجي، وانك ستخفق في ادراك جانب مهم من العمل النظري عند المحللين النفسانيين وبالخصوص عند اللاكانيين[3]. واكثر من هذا : فانه وفي كل النقاشات الفكرية التي سبقت اولحقت بحركة 1968 ، فانه من السهل ان تجد مكانة لأولئك الذين تكونوا من قريب او بعيد من طرف كونغليم .

ومن دون تجاهل التفسخات او التعارضات التي حدثت خلال السنوات الاخيرة وحتى منذ نهاية الحرب والتي تعارض الماركسية بغير الماركسية والفرويدين بغير الفرويديين واختصاصيو مجال ما بالفلاسفة والجامعيون بغير الجامعيين و المنظريين بالسياسيين ، يظهر لي انه من الممكن ان نجد خطا آخر للقسمة يعبر هذه التعارضات ، انه الخط الذي يفصل بين فلسفة التجربة والمعنى والذات وفلسفة المعرفة والعقلانية والمفهوم ، فهنالك من جهة تجربة "سارتر Sartere " و "ميرلوبنتي Merleau-Ponty "وهنالك من جهة اخرى توجه "كفاييس Cavaillés"و "باشلار Bachelard " و "كويري Koyré" وكونغليم .

ومن دون شك فان هذه الانقسامات تأتي من بعيد ويمكن لنا ان نعاين اثرها ابتداء من القرن التاسع عشر من خلال ، "برغسون Bergson" و "بوانكريه Poincaré" ، "لشولييه Lachelier" و"كوتيرا Couturat"، "مان ديبران Maine de Biran " و"كونت Comte" . وعلى كل حال هكذا تكوّن كذلك او تشكّل ذلك الخط في القرن العشرين وبواسطته استقبلت الفينومينولوجية او الظواهرية في فرنسا ، فلقد تم تدريسها ابتداء من سنة 1929 وتحويرها وترجمتها قبل فترة قليلة من ترجمة "التأملات الديكارتية Méditation cartésiennes [4] ، حيث كانت موضع قراءتين مختلفتين : الاولى في اتجاه فلسفة الذات و حاولت تجذير "هوسرل Husserl" ولم تتأخر في القاء اسئلة الوجود والعدم[5]وهو مابينه مقال جون بول سارتر حول تعالي

---

[3] - نسبة الى العالم النفسي الفرنسي جاك لكان Jacques Lacan (1910-1981)صاحب كتاب : كتابات Ecrits .

[4]- Husserl (E.), *Méditations cartésiennes . Introduction à la phénoménologie*, trad.G.Peiffer et E.Levinas,Paris, Vrin,1953.

[5]- Heidegger (M), *Létre et Le Temps* .trad. R.Boehem et A.de Waelhens, Paris,Gallimard,1964.

الذات في سنة 1935 [6]، والاتجاه الثاني عني او اهتم بالاسئلة المؤسسة لفكر هوسرل،مثل اسئلة الصورية والشكلية والحدس وهي الاسئلة التي ستكون في سنة 1938 اطروحتي كفاييس حول المنهج الاكسيوماتيكي وتشكل نظرية المجموعات [7]. و ماسيحدث بعد ذلك من تفرعات وتداخلات وتفارقات ايضا ، بين هذين االاتجاهين من الفكر، قد شكل في فرنسا نسيجا بقي لزمن يطول اويقصر غير متجانس بشكل عميق.فظاهريا بقي الاتجاه الثاني اتجاها نظريا ومرتبط بالمسائل الفكرية البعيدة عن مشاغل السياسة الحاضرة او الآنية ، بالرغم من ان هذا الاتجاه هو الذي سيتدخل بشكل مباشرة في المعارك ،وكأن اسئلة اسس العقلانية لايمكن فصلها عن اسئلة الشروط الحالية للوجود .وهي نفس الاسئلة التي لعبت دورا محددا خلال الستينيات في ازمة لم تكن فقط ازمة الجامعة ولكنها ازمة مكانة ودور المعرفة.من هنا يمكن لنا ان نتساءل عن هذا الخط او الصنف او النوع من التفكير الذي استطاع ، من خلال اتباعه لمنطقه الخاص ، ان يجد نفسه مرتبطا بشكل عميق بالحاضر .

ان احد الاسباب الرئيسية في ذلك ، تعود الى كون تاريخ العلوم يجد احقيته الفلسفية في انه يعمل ضمن موضوع ادخل من دون شك تعارضا في فلسفة القرن الثامن عشر، بحيث انه وللمرة الاولى في هذه الحقبة طرحنا على الفكر العقلاني سؤالا لايتعلق فقط بطبيعته وأسسه، بسلطاته وحقوقه ، ولكن طرحنا عليه ايضا تاريخيته وجغرافيته ، ماضيه القريب وشروط ممارسته الحالية ، وسطه وحاضره . ومن هذا السؤال والذي بواسطته اقامت الفلسفة بشكلها الحاضر وفي ارتباط بسياقها ، استفهام اساسي يمكن ان يأخذ كرمز لذلك الحوار الذي وقع في "المجلة البرلينية berlinische monatsschrift" والذي كان موضوعه الانوار او "ماهي الانوار ؟؟ *Was ist Aufklàrung* " والذي اجاب عليه "مندلسون Mendelssohn "ثم "كانت Kant"[8].

---

[6]- Sartre (j-p) , <<La transcendance de L'ego. Esquisse d'une description phénoménolgique , *Rcherches philosophique* , n°6,1935 ; rééd.,Paris , Vrin, 1988 .

[7]- Cavaillés (j.),*Méthode axiomatique et formalisme . Essai sur le probléme du fondement des mathématiques* , Paris ,Hermann, 1937 ; *Remarques sur la formation de la theorie abstraite des ensembles.Etude historique et critique* , Paris, Hermann, 1937.

[8]- Mendelssohen (M.), <<Ueber die Frage : was heeisst Aufklàren ?>> ? *Berlinische Monatsschrift*, n°3, septembre 1784,pp.193-200.Kant (I.), <<Beantwrtung der Frage : Was ist Aufklàrung ?>> ,*Berlinische Monatsschrift*, n°6, décembre1784, pp.491-494(*Réponse à la question : Qu'est-ce que les Lumières* ? ,trad . S. Piobetta , in Kant (E.), *La philosophie de L'histoire (Opuscules)* , Paris , Aubier,1947, pp.81-92)

لقد نظر في البداية الى هذا السؤال وكأنه استفهام شكلي نسبيا : لقد سالنا الفلسفة على الشكل الذي يمكن ان تلبسه وعن صورتها الحالية وعن اثارها المنتظرة، لكن الذي حدث هو ان الاجابة المقدمة حملت امكانية ان تذهب ابعد من هذا . لقد جعلنا من الانوار المحطة التي تجد فيها الفلسفة امكانية ان تتشكّل باعتبارها صورة محددة لحقبة معينة وان هذه الحقبة اصبحت صورة لانجاز هذه الفلسفة .

ويمكن للفلسفة ان تكون مقروءة ايضا بوصفها تشكّل القسمات الخاصة للحقبة التي ظهرت فيها ، انها الصورة المنسجمة والنسقية ، والشكل المفكر فيه ، ولكن من جهة اخرى تظهر الحقبة وكانها ليست اكثر من انبجاس وتمظهر في قسماته الاساسية لما هو جوهري في الفلسفة . وهكذا تبدو الفلسفة بوصفها عنصرا يوحي بدلالات المرحلة او على العكس يبدو بوصفه قانونا عاما والذي يعني ان لكل مرحلة صورتها التي يجب ان تأخذها .

وهكذا فان قراءة الفلسفة في اطار التاريخ العام وتأويله على اساس مبدأ التتابع التاريخي اصبح ممكنا ، واصبح على الفور سؤال الحاضر او اللحظة الحاضرة ، واصبح سؤال الفلسفة الذي لايمكن ان تنفصل عليه .فبأي معنى تكون هذه اللحظة تنتمي الى الصيرورة التاريخية العامة وبأي معنى تشكل الفلسفة اللحظة حيث على التاريخ ان ينكشف في ظل تلك الظروف ؟

وهكذا اصبح التاريخ احد اكبر مشاكل الفلسفة ، وربما يجب البحث في الكيفيات التي اتخذها سؤال الانوار او لماذا اتخذ هذا السؤال مسارا مغايرا في الثقافة الالمانية والفرنسية والانجلوسكسونية ، ولماذا استمر هنا وهناك وفي مجالات مختلفة جدا ، وفي تسلسلات تاريخية جد مغايرة .ولنقول ان الفلسفة الالمانية طرحت في ذات السؤال اطار الفكر التاريخي والسياسي للمجتمع (مع مشكلة مركزية هي التجربة الدينية في علاقتها بالاقتصاد والدولة) فمنذ "مابعد الهيغليين Posthégéliens" الى "مدرسة فرانكفورت Ecole de Francfort"ومن " لوكاتش Luckacs" مرورا "بفيورباخ Feurbach" و"ماركس Marx" و"نيتشه Nietsche" و"ماكس فيبر Max Weber" ، كلهم يشهدون على ذلك .

وفي فرنسا،فان تاريخ العلوم الذي قام بدور الرافعة لسؤال الفلسفة حول

ملاحظة : خص مشال فوكو نص كانط :ماهي الانوار ، بدرس في الكوليج دي فرانس وذلك بتاريخ 05جانفي 1983.

الأنوار وتجسد بشكل محدد في انتقادات "سان سيمون Saint-Simon" ووضعية اوغست كونت واتباعه الذين حاولوا التفكير بشكل من الاشكال سؤال مندلسون وكانط ،وذلك على مستوى التاريخ العام للمجتمعات وهذا من خلال المعرفة والايمان والشكل العلمي للمعرفة والمضامين الدينية للتصورات والانتقال من ماقبل الفكر العلمي الى الفكر العلمي وتكوين سلطة عقلانية على اساس تجربة تقليدية وظهور ، ضمن تاريخ الافكار والعقائد، لنمط من التاريخ الخاص للمعرفة العلمية واصل وافق العقلانية ...وعلى هذا الشكل أي من خلال الوضعية وكذلك من خلال معارضتها ، ومن خلال الحوارات الصاخبة حول العلمية وعلم العصور الوسطى ، انتقل سؤال الانوار الى فرنسا . واذا كانت الظواهرية ، بعد مرحلة طويلة من الصمت والتهميش انتهت الى الظهور فان الفضل في ذلك يعود الى اليوم الذي طرح فيه "هوسرل " في التاملات، والازمة [9]، سؤال العلاقة بين المشروع الغربي للعقل والعلم الوضعي وجذرية الفلسفة .

ومنذ قرن ونصف ، حمل تاريخ العلوم في ذاته رهانات فلسفية يسهل التعرف عليها . ان اعمالا مثل اعمال كويري و باشلار وكفاييس وكونغليم كانت لها مرجعية معينة في مجالات محددة او جهوية محددة في تاريخ العلوم ، الا انهم وظفوا هذه المجالات بوصفها مخابر لفلسفات هامة حيث تم تفكير سؤال الانوار الهام بالنسبة للفلسفة المعاصرة .

واذا وجب البحث عن عمل مماثل لما قام به كويري وباشلار وكفاييس وكونغليم ، فانه يجب البحث عنه ومن دون آدني شك في مدرسة فرانكفورت التي نجدها بالرغم من ان الأساليب مختلفة جدا، وكذلك الكيفيات والمجالات المعالجة ، الا ان هؤلاء و أولئك قد اهتموا بذات الأسئلة بالرغم من انهم مشدودون هنا بذكريات ديكارت وهنالك بظل لوثر.ان هذه الاستفهامات هي ما يجب توجيهها لعقلانية تطمح للعلمية رغم تطورها في الحادث الذي يؤكد وحدتها والذي لايصدر الا عن تحولات جزئية والتي تصادق على نفسها بسيادتها الخاصة ولكنها لاتستطيع ان تنفصل في تاريخها عن قصورها الذاتي وثقلها الذي يخضعها.وفي تاريخ العلوم في فرنسا كما في النظرية النقدية الالمانية،فان الامر يتعلق بامتحان عميق، لعقل له بنيات مستقلة لكنها تحمل في ذاتها تاريخ الدوغماتيات والطغيان ، عقل في النهاية

---

[9]- Husserl (E.) , *La Crise des sciences européennes et la phénoménologie transcendatale*, tra.G.Granel , Paris, Gallimard,1976.

ليس له اثر التحرر و الانعتاق الابشرط ان يصل الى التحرر من ذاته .

هنالك عدد من المسارات التي طبعت النصف الثاني من القرن العشرين والتي دفعت في قلب الاهتمامات المعاصرة مسالة الأنوار.المسار الاول متعلق بالأزمة التي اتخذتها العقلانية العلمية والتقنية في تطور قوى الإنتاج وفي لعبة القرارات السياسية.والمسار الثاني ، متعلق بتاريخ <<ثورة >>كانت أملا وذلك منذ القرن الثامن عشر وكانت محمولة كذلك بعقلانية ،ولكن اصبح لنا الحق ان نطالبها عن مسئوليتها في الطغيان وفي انسداد الامل .والمسار الثالث والاخير متعلق بالحركة التي بواسطتها اصبحنا نطالب الغرب وفي الغرب، باي حق تكون للثقافة الغربية والعلم الغربي والتنظيم الاجتماعي الغربي واخيرا العقلانية الغربية،شرعية عالمية: validité universelle ،وليست فقط مجرد سراب ووهم وخداع لسيطرة وهيمنة سياسية؟ فمنذ قرنين من ظهور سؤال الانوار هاهو يعود من جديد بوصفه ، كيفية او طريقة لكي يعي الغرب امكانياته الحالية والحريات التي يستطيع او بامكانه ان يمارسها او التي يستطيع ان يدخلها ، وفي نفس الوقت كذلك بوصفه كيفية او طرية للتساؤل والاستفهام حول حدوده والسلطات التي يتمتع بها .أي النظر الى العقل بوصفه يحمل الطغيان والانوار في نفس الوقت.

لايجب ان نتعجب ان اصبح تاريخ العلوم ، وخاصة الصورة الخاصة التي اعطاها اياه كونغليم، قد احتلت في فرنسا وفي الحوارات الحالية مكانة جد مركزية و محورية .ولكي نصف الاشياء بشكل عام ، فان تاريخ العلوم قد اهتم ومنذ فترة طويلة (بشكل اختياري وبشكل خاص) ببعض الفروع العلمية <<النبيلة>> والتي تحتفظ بكرامتها من عراقتها ، ومن درجة صوريتها او شكلانيتها "Formalisation"، ومن قدرتها على الترييض" Mathématiser" [10]والى مكانتها الخاصة التي احتلها ضمن المراتبية الوضعية للعلوم.واذا هذه المعارف او العلوم قد بقيت منذ اليونان حتى "ليبنتز Leibniz" مرتبطة بالفلسفة بل وشكلت جسدا واحدا مع الفلسفة ، فان تاريخ العلوم قد تجنب السؤال الذي كان بالنسبة لتلك المعارف مركزي لانه متعلق بعلاقتها بالفلسفة .

لقد عكس كونغليم السؤال ، وركز مجمل عمله او ماهو هام من عمله على تاريخ البيولوجية والطب ، مع العلم ان القيمة النظرية للمسائل المثارة من قبل تطور علم

[10] - أي انها اتخذت اشكالا رياضية . المترجم .

ليست مرتبطة بالقوة وبشكل مباشر بالدرجة الصورية او الشكلية التى بلغتها.اذن لقد انزل تاريخ العلوم من قممه (الرياضيات ، الفلك ، ميكانيك غاليلي، فيزياء نيوتن ، النظرية النسبية) نحو مناطق حيث المعارف اقل استنباطا ، وحيث بقيت مرتبطة ،منذ زمن طويل، باوهام الخيال وحيث انها طرحت سلسلة من الاسئلة الغريبة جدا عن تقاليد وعادات الفلسفة .ولكن باحداثه هذا التغيير فان كونغليم قد عمل اكثر على ضمان اعادة تقييم لميدان بقي نسبيا مهمل.لم يوسع فقط من تاريخ العلوم وانما عدّل ونقّح الفرع ذاته في عدد من النقاط الاساسية .

1) لقد أعاد طرح موضوع الانفصال <<discontinuité>>.انه موضوع قديم يتزامن تقريبا ومولد و ظهور تاريخ العلوم .وما يميز هذا التاريخ كما يقول "فونتنال Fontenelle" هو التشكل المفاجيء لبعض العلوم ، <<انطلاقا من العدم او من لاشيء >> ، وكذا السرعة المذهلة للتطورات غير المنتظرة ، والمسافة التي تفصل بين المعارف العلمية و <<الاستعمال العام >>والاسباب او المبررات التي دفعت بالعلماء، انه ايضا الشكل السجالي لهذا التاريخ الذي لايتوقف عن سرد ورواية المعارك ضد <<الاحكام المسبقة >> و <<المقاومات او التحفظات >> و << العقبات >>[11] . وباخذه لهذا الموضع ، الذي شكله وكونه كويري وباشلار ، اكد كونغليم على ان تحليل الانقطاعات بالنسبة له ليست مسلمة ولا نتيجة، ولكنها <<طريقة او كيفية او صفة للعمل aniere de faire,>> ، واجراء مرتبط ومنسجم مع تاريخ العلوم لانه يسمي الموضوع الذي يجب ان يعالجه. تاريخ العلوم ليس تاريخ الحقيقي ، وعظمته البطيئة ، كما انه ليس معنيا برواية الاكتشافات المتتالية والمتصاعدة والمتطورة والمتلاحقة لحقيقة كائنة في الاشياء وفي الفكر ، وتخيل او تصور ان المعارف الحالية تتضمنها بصورة كاملة ونهائية وتمكننا من قياس وتقدير الماضي.

ومع ذلك ، فان تاريخ العلوم ليس مجرد تاريخ بسيط للافكار وللشروط التي ظهرت منها قبل ان تمحى.لا نستطيع في تاريخ العلوم ان نعتبر الحقيقة وكانها مكسب ولا يمكن لنا ان نقوم ايضا باقتصاد العلاقة مع الحقيقي والتعارض القائم بين الحقيقي والخاطيء .ان ما يعطي خصوصية واهمية لهذا التاريخ هو عودته و استشهاده

---

[11]- Fontenelle (B. Le Bovier de) , Préface à l'histoire de l'Académie , in Oeuvres , éd . de 1790 , t.4,pp.73-74 . George Canguilhem cite ce texte dans l ' Introduction à l'histoire des sciences , 1970, t.1Eléments et Instruments, pp .7-8.

بمرجعية نظام الحقيقي والخاطيء . ولكن باي شكل ؟ بادراكنا اننا نقيم تاريخا لـ <<الخطابات الحقيقية >>، بتعبير آخر، للخطابات التي تقوّم نفسها و تصحّح نفسها وتجري على ذاتها تحسينات نهائية بهدف <<قول الحق dire vrai>> . ان الروابط التاريخية لمختلف اللحظات التي يمكن ان تكون لعلم ما فيما بينها هي بالضرورة تتخذ شكل الانفصال التي تكونها التصحيحات واقامة اسس جديدة وتغير السلم ، سلم القيم والانتقال الى نمط جديد من الموضوعات او <<المراجعة الدائمة للمضامين بواسطة التعميق والحذف >> كما قال كفايس . لايتم اقصاء الخطا بواسطة قوة الحقيقة الصماء التي تظهر في الظل ولكن بتشكل طريقة جديد في <<قول الحق >> .[12] ان احد شروط امكانية ان يتكون ، في بداية القرن الثامن عشر ، تاريخ للعلوم ، كان كما يقول جورج كونغليم ، يعود او يرجع الى الوعي بـ <<الثورات العلمية >>الجديدة وخاصة ماتعلق بالهندسة الجبرية وعلم الفضاء الكوبرنيكي والنيوتوني.[13]

2) – ان الذي يقول <<تاريخ الخطاب الحقيقي >> يعني كذلك منهج التكرار récurrente ليس بالمعنى الذي يقول به تاريخ العلوم : ما الحقيقة المعترف بها اليوم ومنذ اية لحظة استشعرناها واي السبل اتبعتها وما هو الفريق الذي دبر اكتشافها والبرهنة عليها ؟ ولكن بمعنى التحولات المتتالية لهذا الخطاب الحقيقي حيث تنتج بدون توقف التنقيحات ضمن تاريخها الخاص ، وان الذي ظل مسدودا يصبح يوما مخرجا ، وان محاولة جانبية تصبح مشكلة مركزية حيث يتمحور العديد من الباحثين حولها او على حافتها ، وان مقاربة مخالفة قليلا تصبح قطيعة اساسية : اكتشاف تخمر غير خلوي ـ ظاهرة جانبية في مملكة البيولوجية الجزئية الباستورية ـ لم تسجل قطيعة اساسية الا في اليوم الذي تطورت فيه فيزيولوجية الانزيمات او الخميرة .[14] واجمالا فان تاريخ الانفصالات لم يكتمل مرة والى الابد انه ، انه لاتواصلي او غير استمراري ، ويجب عليه ان يتجدد دائما .

هل يجب ان نستخلص من هذا ان العلم يتجدد في كل وقت وانه يصنع ويعيد

---

[12]- Sur ce voir theme Ideologie et Rationalité dans l'histoire des science de la vie , Paris , Vrin , 1977,p.21.

[13]- Cf . Etude d'histoire et de philosophie des sciences , Paris , Vrin , 1968 , p.17.

[14]- G . Canguilhem reprend l 'éxemple traité par M . Florkin in A History of Biocemistry , Amesterdam Elsevier , part . 1 et 2 , 1972 , part, 3 1975 ; cf.Idéologie et Rationalité , op ; cit . ,p . 15 .

صناعة تاريخه بشكل عفوي الى درجة ان المؤرخ الوحيد المسموح له بتأريخ العلوم هو العالم ذاته الذي يعيد تشكيل تاريخ العلم الذي يعمل عليه ؟ان المشكلة بالنسبة لكونغليم ليست مشكلة وظيفة ولكنها مشكلة وجهة النظر . ان تأريخ العلوم لايمكن ان تكفيه عملية جمع لما اعتقده او برهن عليه العلماء في الماضي ، فنحن لانكتب تاريخ الفيزيولوجية النباتية اذا صففنا << كتب الذين نسميهم النباتيون والاطباء والكيماويون والبستانيون والزراعيون والاقتصاديون وكل ما تعلق بظروفهم وملاحظاتهم او تجاربهم والعلاقة بين الوظيفة والبنية في موضوعات سميت مرة عشب ومرة نبتة ومرة نبات >> [15]. ولكن لانكتب ايضا تاريخ العلوم بتصفية الماضي من خلال مجموعة من الملفوظات او المنطوقات او النظريات المقبولة حاليا ، بفصلنا هكذا للحقيقي من <<الخاطيء>> ومن الذي كان حقيقيا واصبح خاطئا او تبين انه خطأ.

هنا احد المميزات الاساسية في منهج وطريقة جورج كونغليم .لايمكن لتاريخ العلوم ان يصبح تاريخا خاصا الا اذا اخذ بعين الاعتبار وجهة نظر الابستمولوجي مقارنة بنظرة المؤرخ الصرف او الخالص ونظرة العالم . وجهة النظر هذه هي التي تظهر عبر الحقب او المراحل المختلفة لمعرفة علمية <<مسلك مرتب ومستتر، او مسار منظم وكامن >> : وهو ما يعني ان عمليات اقصاء وانتقاء الملفوظات والنظريات والموضوعات تقوم وفقا لجملة من المعايير ، هذه المعايير لا تتطابق وبنية نظرية او نموذج قائم او حاضر او معاصر لان الحقيقة العلمية الحالية ليست الا حلقة ، او لنقل اكثر من هذا : انها مؤقتة .ليس بالاعتماد على <<علم معياري >> نستطيع ان نعود او نحقق العودة الى الماضي ونرسم بشكل مقبول التاريخ ، ولكن بايجادنا لعملية او عندما نجد <<عملية المعيار normé >>[16] ، في المعرفة الحالية والذي هو مجرد لحظة من دونها لانستطيع ان نتكهن بالمستقبل اونستكشف المستقبل.

تاريخ العلوم كما يقول جورج كونغليم مستندا و مستشهدا بـ <<سيزان باشلار Suzane Bachelard >> لايمكن ان يؤسس موضوعه او مجاله خارج << مكان وزمان مثالي >>.[17] وهذا المكان –الزمان ، لم يعطى له لا من قبل زمن <<واقعي

---

[15]- Idéologie et Rationalité dans l'histoire des sciences de la vie , op , cit ., p .14. ;

[16] – أي الفعل الذي يصير او يجعل من الشيء يخضع لمعيار ما .

[17]- Bachelard (S) , Epistémologie et Histoire des sciences, 12° congrés international

>> متراكم او تمت مراكته بواسطة معرفة متبحرة في المعرفة التاريخية ولا من قبل مكان مثالي يفصل او يقتطع بشكل سلطوي او بقوة العلم الحاضر او العلوم الحالية ، وانما تعطى له من وجهة نظر الابستمولوجيا . وهذه ليست النظرية العامة لكل علم ومنطوق علمي ممكن ، انها البحث في المعيارية الداخلية او الباطنية لمختلف النشاطات العلمية، كما تعمل بالفعل او كماهي بالفعل.

يتعلق الامر اذن بتفكير نظري ضروري واساسي ، تفكير يسمح لتاريخ العلوم ان يتكون او ان يتشكل على نمط مغاير لما هو عليه التاريخ العام ، و عكسيا فان تاريخ العلوم يفتح مجالا لتحليل ضروري بحيث تصبح الابستمولوجيا شيء آخر غير، اعادة الانتاج البسيط للتخطيطات الداخلية لعلم من العلوم في مرحلة معينة او حقبة معطاة .وفي المنهج المتبع من قبل جورج كونغليم ، اقامة،التحليلات <<الانفصالية>> وتوضيح العلاقة التاريخية بين العلم و الابستمولوجيا ، مسالتان متزامنتان او خطوتان يتماشيان معا .

3) – الا انه باحلاله ضمن هذا الافق التاريخي–الابستمولوجي لعلوم الحياة ، يكون جورج كونغليم قد بين او اظهر عددا من الخطوط الاساسية التي ميزت تطور تلك العلوم مقارنة بالعلوم الاخرى التي طرحت لمؤرخيها مشاكل خاصة . لقد اعتقدنا في الواقع انه في نهاية القرن الثامن عشر كان بين الفزيولوجية التي تدرس ظواهر الحياة و"باتولوجيا اوعلم الامراض" التي تهتم بتحليل الامراض يمكن لنا ان نجد العنصر المشترك الذي يسمح بتفكير [مايشبه وحدة العمليات السوية] والتي تسجل تعديلات مرضية او تقدم اعراضا مرضية . فمن <<بيشا Bichat>> الى كلود برنار Claude Bernard، ومن تحليل الحمى الى امراض الكبد ووظائفه ، افتتح مجال واسع بدا وكأنه يعد بوحدة الفيزيولوجية المرضية ومدخل لفهم الظواهر المرضية انطلاقا من تحليل العمليات السوية .فمن العضو الصحي توقعنا ان يقدم لنا الإطار العام حيث الظواهر المرضية تجذرت ، واخذت منذ زمن، شكلها الخاص او صورتها الذاتية .هذه المرضية القائمة على اساس معياري يبدو انها ميزت ولزمن طويل الفكر الطبي كله او في مجمله .

ولكن هنالك في معرفة الحياة ظواهر تجعلنا على مسافة من كل معرفة يمكن ان تكون مرجعيتها المجال الفزيائي – الكيميائي ، وانها لم تجد مبدء تطورها الا في التساؤل حول الظواهر المرضية .لقد كان من الاستحالة تكوين علم حول الحي من دون الاخذ بعين الاعتبار لموضوعه ، امكانية المرض والموت والتشوه والمرضي

d'histoire des sciences , Paris , 1968 ,Revue de synthése , 3°série , n°s 49-52, janvier – décembre 1968 , p . 51.

او اللاسوي والخطأ .يمكننا ان نعرف وبكثير من الحكمة واللطافة والدقة الآليات الفزيائية – الكيميائية التي تضمنتها ، والتي لاتجد مكانها في خصوصية، حيث علوم الحياة اخذت في حسبانها، ان تمحو ذاتها وهو ما يشكل بالضبط موضوعها ومجالها الخاص بها .

من هنا ، كان في علوم الحياة ، واقعة مفارقة .وهو ان عملية تشكلها حدثت بفعل اظهار الاليات الفزيائية والكيميائية وبفعل تشكل مجال مثل كيمياء الخلايا و[الكيمياء الجزئية] وبفعل استعمال نماذج رياضية ، ..الخ وفي المقابل لم تحدث الا في الاطار الذي انطلقت فيه باعتبارها تحدّ للمشاكل الخاصة للمرض وافقها الذي تسجله من بين كل الكائنات الطبيعية[18]. هذا لايعني ان تكون الحيوية vitalisme حقيقية ، وهي التي مررت العديد من الصور وابدت العديد من الاساطير . وهذا لايعني ايضا القول انها يجب ان تشكل فلسفة البيولوجيين التي لاتقهر وهي التي تجذرت في الفلسفات الاقل صرامة .ولكن هذا يعني ان لها وان لديها ايضا ومن دون شك في تاريخ البيولوجية دور هام بوصفها مؤشر<< indicateur.>>.وهذا من جهين : مؤشر نظري لمشاكل يجب ان تحل (بشكل عام ، مايشكل جدية الحياة او اصالة الحياة originalité من دون ان تشكل بحال من الاحوال امبراطورية مستقلة عن الطبيعة او موضوعا مستقلا عن الطبيعة) ومؤشر نقدي للاختزالات التي يجب تفاديها (من مثل المحاولات التي تعمل على تجاهل ان علوم الحياة لاتستطيع ان تتجاوز وضعية قيمية معينة والتي تميز او تسجل المحافظة والانتظام والتكيف واعادة الانتاج ، ..الخ) أي ((الضرورة بدلا من المنهج والاخلاق بدلا من النظرية.))[19]

4) – تتطلب علوم الحياة كيفية معينة لكتابة تاريخها .انها تطرح هي كذلك بطريقة خاصة المسالة الفلسفية للمعرفة .

الحياة والموت لم يكونا في ذاتهما مسالتين فيزيائيتين حتى وان كان الفيزيائي في عمله يخاطر بحياته الخاصة او بحياة الآخرين ، لان الامر بالنسبة له يتعلق بمسالة اخلاقية او سياسية ولكن ليس بمسالة علمية.وكما قال " أ . لووف A.Lwoff " [مهلك ام لا ، فان النمو الجيني ليس بالنسبة للفزيائي اكثر او اقل من استبدال لقاعدة نووية بقاعدة اخرى.]ولكن في هذا الاختلاف ، البيولوجي اوعالم الاحياء هوالذي يعترف بخصوصية موضوعه .وبنمط او صنف الموضوعات التي ينتمي

[18]- Etude d'histoire et de philosophie des sciences , op . cit ., p .239.

[19]- La Connaissance de la vie , 1952 , 2°éd , ., Paris , Vrin , 1965 , p. 88.

اليها ، بما انه يحي ،وان طبيعة هذا الحي ، يظهرها ويمارسها ويطورها في نشاط معرفي يحب ان يفهمه بوصفه << منهج عام من اجل حل مباشر او غير مباشر للتوترات بين الانسان والمحيط >>.

البيولوجي يدقق او يحدد ما يجعل من الحياة موضوعا خاصا للمعرفة ، وكذلك ما يجعل داخل الحي قابلية للمعرفة او القدرة على المعرفة ، وعلى معرفة الحياة ذاتها .لقد طلبت الفينومينولوجية من <<المعاش vécu>> المعنى الاصلي لكل فعل معرفي.ولكن الاتستطيع او الا يجب ان نبحث عليه في جهة <<الحي vivant>> ذاته ؟ يريد كونغليم ان يجد ، من خلال توضيح وتفسير المعرفة حول الحياة والمفاهيم التي تمفصل هذه المعرفة ،ما يوجد في المفهوم من حياة بتعبير آخر، المفهوم بوصفه نمط او شكل اوطريقة للاعلام او للاخبار، وبان كل حي يقتطع من محيطه فانه في المقابل يقوم ببناء محيطه اوبهيكلة محيطه .

وان يكون الانسان الحي في وسط مفهومي مهيكل او مبني ، فان هذا لايدل على تخليه للحياة بسبب نسيان او كارثة تاريخية فصلته عن الحياة ، ولكنه فقط يحيى بطريقة مخالفة او بكيفية معينة حتى لوكان له مع محيطه علاقة ليست لها صفة ثابتة وانما متحركة وعلى ارضية غير محددة بشكل واسع وله ان يتنقل من اجل جمع المعلومات وان يحرك الاشياء الواحدة في علاقة مع الاخرى من اجل ان يجعلها وظيفية واستعمالية ومفيدة ومستخدمة .

ان تكوين المفاهيم ،كيفية للعيش وطريقة للحياة وليس لقتل الحياة او اماتتها .انها صفة للحياة في حركية نسبية وليست محاولة لتثبيت الحياة او تسكين الحياة ، انها اظهار وتميز من بين هذه الملايير الحية التي تخبر و تعلم محيطها وتعمل فيه ، انها تجديد وابداع نحكم عليه كما نريد ، زهيد او معتبر : انه نمط معين من الاخبار و الاعلام .

ومن هنا يعطي كونغليم اهمية كبرى للقاء الذي حصل في السنواة الاخيرة في علوم الحياة بين،السؤال القديم حول السوي والمرضي وعلاقته بمجموع المفاهيم البيولوجية، وبين نظرية الاعلام Theorie de L 'iformation: ومفاهيمها : << رمز، رسائل ،مراسلين code ,messages, messagers الخ .>>ومن هذه الزاوية يعد<<السوي والمرضي*Le Normal et Le Pathologique*>>الذي كتب جزءا منه في سنة 1943 والجزء الآخر في الفترة مابين 1936-1966 بدون ادنى شك ، الاثر الاكثر دلالة في عمل كونغليم .حيث نرى كيف ان مشكلة خصوصية الحياة قد تم تحويلها مؤخرا في اتجاه يلتقي باحد المشاكل التي نعتقد انها تنتمي الى الاشكال الاكثر حداثة وتطورا. وفي مركز هذه المشاكل هنالك مشكل الخطأ

Erreur. لانه على المستوى الاساسي للحياة او المستوى الاشد اساسية في الحياة ، فان العاب الرمز و التفكيك تترك مكانها للاحتمال او الصدفة و انه قبل ان يكون هنالك مرض ، مفلس او خطير، فانه قبل كل شيء اضطراب في النظام الاعلامي ، شيء مثل الخطأ <<méprise>> وفي النهاية او تحديدا ، الحياة –وهنا ميزتها الجذرية – هو الشيء القادر على الخطأ. ومن الممكن او من المحتمل انه من هذا المعطى او الحادث او الاحتمال الاساسي يجب المطالبة بان مسالة الشذوذ تعبر البيولوجيا من اقصاها الى اقصاها او تعبر كل اقسامها. كما يجب التساؤل عن هذا الخطا الخاص ،او الخطأ المتفرد ولكن الوراثي ،والذي يدفع الكائن او الحي الى الخطا.

واذا ما قبلنا بان المفهوم ، هو الجواب الذي تقدمه الحياة لهذا الاحتمال او الصدفة او المخاطرة <<aléa >>فانه يجب الاقتناع اذن بان الخطا هو الذي يشكل جذر التفكير الانساني وتاريخه.وان التعارض او التقابل بين الخطا والصحيح ، والقيم التي ننسبها لهذا او ذاك ، واثار السلطة في مختلف المجتمعات وفي مختلف المؤسسات المرتبط بهذه القسمة ، كل هذا من الممكن ان يكون هو الجواب المتاخر لهذه الامكانية في الخطا الضمني للحياة .واذا كان تاريخ العلوم انفصالي او انقطاعي، بمعنى اذا كنا لانستطيع تحليله الا باعتباره سلسلة من <<التصحيحات >>، او بوصفه نوعا من التوزيع الجديد والذي لايحرر مطلقا والى الابد اللحظة النهائية للحقيقة ، يعني هذا ان <<الخطأ erreur>> لايشكل نسيانا ولا تاخرا او تخلفا لانجاز موعود ، ولكنه يشكل البعد الضروري للنوع البشري .

كان نيتشه يقول ان الحقيقة هي الخطا العميق .وربما كان يقول كونغليم ، وهو القريب والبعيد في نفس الوقت من نيتشه ، انها كانت بالنسبة للوحة الحياة الكبرى ، الخطأ الجديد و الاخير و الاكثر حداثة ، او كان سيقول بالتدقيق ان القسمة بين الصحيح والخاطيء وكذلك القيمة المعطاة للحقيقة تشكل الطريقة الخاصة للحياة او للعيش والتي يمكن ان تخلق حياة او تبدع او تكتشف حياة والتي هي منذ الاصل او منذ البداية ، تحمل في ذاتها احتمال الخطأ . الخطأ بالنسبة لكونغليم هو الاحتمال الدائم الذي يدور من حوله تاريخ الحياة ومستقبل وسيرورة البشر.

ان مفهومه للخطا هو الذي سمح له بان يربط ما يعرفه عن البيولوجية وطريقته في كتابة التاريخ ولكنه من دوني ان يختزل طرفا في طرف او ان يكون ذلك في جهة على حساب جهة اخرى كما كان الامر زمن التطوريين .وهي نفس الميزة التي سمحت له كذلك ان يبين ويوضح العلاقة بين الحياة ومعرفة الحياة او المعرفة المتعلقة بالحياة وان يتابع خطا احمرا او مايشبه خطا احمرا في تحديد حضور

القيمة والمعيار .

هذا هو مؤرخ العقلانيات والذي كان اكثر <<عقلانية >>او شديد <<العقلانية>>. انه فيلسوف الخطا ، اريد ان اقول انه نطلقا من الخطا طرح القضايا الفلسفية ، او لنقل بشكل دقيق مشكلة الحقيقة والحياة.هنا نلمس من دون شك، احد الاحداث الاساسية في تاريخ الفلسفة الحديثة : فاذا كانت القطيعة الديكارتية قد طرحت مشكلة العلاقات بين الحقيقة والذات فان القرن الثامن عشر قد ادخل بالنسبة لعلاقة الحقيقة سلسلة من الاسئلة كان فيها نقد الحكمcritique du jugement[20] وفينومبينولوجيا الروح phenomenologie de lesprit[21] شكلها الاول. ومنذ ذلك التاريخ او ومنذ تلك اللحظة اصبحت تشكل احد رهانات النقاش الفلسفي : فهل ان معرفة الحياة يجب اعتبارها ليس اكثر من منطقة من المناطق التابعة او المنتسبة للمسالة العامة للحقيقة والذات والمعرفة ؟ او انها تفرض ان نطرح هذه المسالة بشكل مغاير اومخالف ؟ الا يمكن اعادة تشكيل كلي لنظرية الذات منذ ان اصبحت المعرفة بدلا من ان تنفتح على حقيقة العالم ، تتجذر في <<اخطاء>> الحياة ؟من هنا نفهم لماذا كان فكر جورج كونغليم اوعمله التاريخي والفلسفي او عمله بصفته مؤرخ وفيلسوف ، كان لهما الاهمية المقررة او المحددة في فرنسا ولكل الذين حاولوا،انطلاقا من وجهات نظر مختلفة ، تفكير مسالة الذات او بالاحرى اعادة تفكير الذات. فلقد استطاعت الفينومينولوجية ان تدخل في حقل التحليل ، الجسد ، الجنسانية ، الموت ، العالم المدرك حيث الكوجيتوcogiti بقي مركزيا ، فلا عقلانية العلم ولا خصوصية علوم الحياة استطاعت ان تعرض دوره المؤسس للخطر .ولقد قام كونغليم بمعارضة هذه الفلسفة الخاصة ، بالمعنى والذات والمعاش ، بفلسفة الخطأ ومفهوم الحي بوصفها كيفية مغايرة لمقاربة مفهوم الحياة.

---

[20]- Kant (I.), Critique de la faculté de juger , trad .Alexis Philonenko , Paris, Vrin , 1965 .

[21]-Hegel (G .W.F) La Phénoménologie de l'ésprit , tra . Jean Hyppolite , Paris , Aubier-Montaigne ,coll, « Philosophie de l''ésprit », t.1, 1939, t.2, 1941.